

**نظرة تحليلية في الحقل التنظيري لعلم الاجتماع
"إشكالية العلم والدين"**

د. غني ناصر القرشي

ملخص:

يشكل هذا البحث نظرة تحليلية لمرحلة حاسمة في تاريخ المجتمعات الأوروبية تتمثل في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي تمثل بداية التحولات والمشكلات التي رافقتها، حيث كان وضع علم الاجتماع يمتد في اتجاهين:

الأول: (جزئي) Micro ، يعتمد على البحث الاجتماعي في سبيل إيجاد حلول لتلك المشكلات التي يراها بعض العلماء محصلة لإشكالية العلم والدين، بعد أن تعرض الدين إلى هزات عنيفة أمام الاختراعات العلمية .

الثاني: (موسع) Macro ، يهتم بالبناء النظري لعلم الاجتماع ، وهنا حاول "رايموند آرون" أن يجمع بين هذين الاتجاهين مستهدفاً الوقوف على قدرة علماء الاجتماع في توفير معطيات هذا العلم لتخليص المجتمع الأوروبي من حالة التناقض وفقدان الاستقرار والتماسك الاجتماعي، فاختار ثلاثة علماء يمثلون خطأً وسطاً يجمع بين الاتجاهين السابقين لعلم الاجتماع ، وهؤلاء هم "باريتو" الإيطالي و"فيبر" الألماني و"دوركهايم" الفرنسي، حيث قدم كل واحد منهم حلوله الموضوعية لعلاج إشكالية المجتمع الغربي "علم-دين".

فـ"باريتو" وجد أن العلم وحده لا يمكنه أن يقدم حلاً جذرياً لهذه الإشكالية، وإنما ينبغي استحضار الكم العاطفي المخزون فيما أسماه الرواسب لتشكيل عامل ضغط لإعادة توازن المجتمع واستقراره .

أما "فيبر" فيعلق آمالاً عريضةً على البيروقراطية التي يتجه نحوها المجتمع الغربي، في حين أكد "دوركهايم" ضرورة استبدال البناء الأخلاقي القائم على أسس تقليدية قديمة ببناء أخلاقي يقوم على أسس علمية مواكبة للتغيرات الحاصلة في المجتمع .

مقدمة:

يرى كثير من المهتمين بالنظرية الاجتماعية أن الوضع النظري المعاصر لعلم الاجتماع يرجع بصورة أو بأخرى لأعمال الرواد الأوائل مثل "باريتو" و"دوركهايم" و"فيبر"، وفي هذا البحث نسعى أن نوصل بين الخطوط الفكرية الأساسية لهؤلاء العلماء في محاولة للوقوف على آرائهم نحو إحدى أهم المشكلات التي عانى منها المجتمع الأوروبي خلال القرن التاسع عشر، وبهذا فإن أسلوب دراستنا لهذه النخبة العلمية استناداً إلى أطروحات "رايموند آرون" لا يوضح فقط الربط الفكري الجامع بين نتاجاتهم بل أيضاً يساهم في تعزيز الحقل التنظيري لعلم الاجتماع ولو بنزر قليل من الإضافة العلمية .

وللتعريف بهؤلاء الرواد فإن "آرون" يرى أنهم ينتمون إلى نفس الجيل في أوروبا ذلك أنهم نشأوا وتكاملوا فكرياً قبل أن تعم بلدان القارة الأوروبية الصراعات الاجتماعية، وعاصروا التغيرات والتحويلات التي مر بها المجتمع الأوروبي آنذاك واعتقدوا أن هذا المجتمع يمر بأزمة حقيقية وأنه يقف على مفترق طرق ، ويرى "آرون" أن الثلاثة اتفقوا على أن جذر المشكلة التي يمر بها المجتمع الأوروبي تكمن في صعوبة التوفيق بين الديانة والعلم .

وبدون شك فالثلاثة علماء والحد الأدنى للعلمية هو أن يطرح العالم النموذج الذي يهيئ التفكير المحدد والدقيق في رسم الحالة الأفضل، ولأنهم علماء اجتماع كانوا يرون كما رأى "كونت" من قبل أن المجتمعات يمكن أن تحافظ على تماسكها من خلال معتقدات مشتركة، لكن المعتقدات المشتركة اهتزت بفعل نمو التفكير العلمي، ويمكن القول بعبارة أكثر دقة أنهم أكدوا على ضرورة العودة إلى التوازن الذي كان يعيشه الجيل الأوروبي السابق قبل ظهور الثورة الفرنسية والثورة الصناعية على الرغم من قناعاتهم بأن المجتمعات الأوروبية تمر بالفعل بمخاضات تغييرية صعبة .

وعلى هذا الأساس تصدى كل منهم وبطريقة مختلفة لحل هذه الإشكالية المتعلقة بالدين والعلم في أوروبا . وإن تسليط الضوء على الجوانب الآتية كفيل بتوضيح طريقة كل منهم في التصدي لهذه الإشكالية :

- آرون .. والحقل التنظيري لعلم الاجتماع.

- جذور الإشكالية وحلولها:

- رؤية تحليلية.

آرون .. والحقل التنظيري لعلم الاجتماع:

في كتابه الموسوم "الاتجاهات الرئيسية في الفكر الاجتماعي" يشير "رايموند آرون" R.Aron إلى أن أهم هدف لوضع كتابه هذا محاولته تحديد علم الاجتماع بدقة والحقل التنظيري لهذا العلم على وجه الخصوص.

تأثر "آرون" بالخلاف الواضح بين علماء الاجتماع الاشتراكيين والرأسماليين حيث إن كل اتجاه يدّعي أن ما يقوم به إنما يضيفي على علم الاجتماع علميته ، فالاشتراكيون ربطوا علم الاجتماع بالاقتصاد إلى الدرجة التي أصبحت فيها العلاقات الاجتماعية حصيداً أو ناتجاً للعلاقات الإنتاجية، وعلم الاجتماع إنما يثبت علميته ومصداقيته من خلال مدى التوافق الذي يحققه بين الوضع الاقتصادي وبين الوضع الاجتماعي السائد في المجتمع، وبهذا فإنهم يعطون معنى اقتصادياً تقنياً للعلاقات الاجتماعية بين الناس من خلال ملكية وسائل الإنتاج من قبل المجتمع بأسره، مما يتيح وجود العلاقات الاجتماعية التعاونية بين أفراد المجتمع كأعضاء جماعة واحدة منتجة.⁽¹⁾

أما علماء الاجتماع الرأسماليون فقد أكدوا الاهتمام بالظواهر الجزئية المحسوسة في المجتمع وعدّوها مجالاً للدراسة ، وهم بذلك يستخدمون أدوات للقياس توصف بـ "الصدق والثبات" Validity and Reliability دون وجود إطار نظري واضح يهتدي به الباحث في اختيار المشكلات ووضع "الفروض" Hypothesis أو صياغة القضايا العلمية ، ينصب على الاتجاه "الامبريقي" Empirical الذي تقوم فلسفته على الاهتمام بـ "الحقائق" Facts أكثر من الاهتمام بـ "المعاني" Meanings⁽²⁾. ولعل السبب في ظهور هذا الاتجاه يعود إلى تفشي المشكلات الاجتماعية الناتجة عن التقدم التكنولوجي الذي يمر به المجتمع ، وعن النجاح الملحوظ الذي أحرزته العلوم الطبيعية والبيولوجية في القرن التاسع عشر، والرغبة في إضفاء الطابع الذي تميزت به على الدراسات الاجتماعية والإنسانية ، لاسيما فيما يتعلق بتطبيق الأساليب والإجراءات المنهجية نفسها التي تستخدمها تلك العلوم في دراسة ظواهر المجتمع ومشكلاته⁽³⁾.

ويتساءل "آرون" عن هذا الخلاف بين الطرفين كل يدّعي بعلمية طريقته ومصداقيتها ، وهل إن مثل هذا التنازع والخلاف وجد لدى الرواد الأوائل ممن جمعوا بين الفلسفة والاجتماع مثل "مونتسكيو" Montesquieu و"كونت" O.Cont و"ماركس" K.Marx و"دي توكفيل" DeTocqueville الذين يختلفون عن علماء الاجتماع في وقتنا الراهن باعتمادهم على البحث وورقة الاستبيان ؟

والواقع ، فإن هناك توأماً بين "ماركس" و"فيبر" كما أن هناك توأماً بين "فيبر" و"بارسونز" مثلما هو التوأم بين "كونت" و"دوركهايم" وكذلك بين "دوركهايم" وكل من "مارسيل موسى" و"شترأوس"^(٤).

إذن، هناك اختلاف بين نظرة الرواد الأوائل وبين نظرة المعاصرين حول موضوع علم الاجتماع وهذا الاختلاف يعتمد على طبيعة فهم هذا العلم من قبل هؤلاء، هل هو الموضوع الذي يركز على دراسة العضلات الأوسع التي تهتم مجتمع العالم بأسره؟ أو هو الموضوع الذي يهتم بدراسة المشكلات اليومية للحياة الاجتماعية؟ بمعنى آخر هل هو الموضوع أو العلم الذي يهتم بالتوجه الجزئي أو الموسع في دراسة المشكلات والعضلات الاجتماعية؟ لقد اهتم "أرون" بالجمع بين التوجه الجزئي "التعاملي" مع الفعل الاجتماعي الإنساني وبين التوجه الموسع "التكاملي" مع الفعل الاجتماعي "حقيقة - ظاهرة - مشكلة"^(٥) فالاتجاه الجزئي إنما يهتم بتعاملية الفعل الاجتماعي من خلال اهتمامه بالانتقال من المركب إلى البسيط ثم إلى الأبسط منه في محاولة لاحتواء أجزاء الفعل الاجتماعي ، ويمكننا أن نحدد الاتجاه الوظيفي كمثال لتعاملية الفعل الاجتماعي ، فهو يركز اهتمامه على "النسق" System ثم على "النسق الفرعي" Sub System ثم على النسق الفرعي مثل المجتمع - الأسرة - التنشئة - المدرسة - التربية وهكذا ... وبالتناغم والتداخل بين هذه الأنساق الفرعية - الفرعية يمكن البدء في إنجاز الوحدة التكوينية التي يمكن أن ترتقي إلى مستوى النسق المركب حيث يتم بناء الشخصية Personality كوحدة تكوينية يمكن عن طريقها ربط الأسرة بالمجتمع ، أو عن طريقها تربط المدرسة بالمجتمع وهكذا ... غير أن هذا المنطلق الجزئي لا يمكن فهمه وتحليله إلا من خلال ما يسمى بطرق البحث الاجتماعي .

أما الاتجاه الموسع فإنه يركز على تكاملية التعامل مع الفعل الاجتماعي ، أي محاولته ربط الفعل الاجتماعي بالفلسفة أو التاريخ ، ومثال ذلك الفعل الاجتماعي عند المرحلة "الكونيتية" حيث تمثل وضعية "كونت" مرحلة يتكامل فيها الفعل الاجتماعي "حقيقة - ظاهرة - مشكلة" بعد أن يكون مرّ بمرحلة أولية تلتها مرحلة انتقالية "لاهوتية - ميتافيزيقية - وضعية"^(٦) . وبهذا فإن "أرون" حاول أن يجمع بين الاتجاهين السابقين وهما "تعاملية الفعل الاجتماعي" و"تكاملية الفعل الاجتماعي" بمعنى البحث الاجتماعي والإطار النظري لعلم الاجتماع ، وتأكيداً على ذلك اختار ثلاثة من رواد علم الاجتماع خطأً وسطاً يجمع بين الاتجاهين السابقين وجد "في آرائهم" همزة الوصل بين الجيل الإمبريقي والجيل التنظيري ، لقد عاش هؤلاء الرواد في عصر كانت فيه رياح التحول تعصف بالمجتمعات الأوروبية قبل أن تخوض صراعاتها في مرحلة كانت المشكلات وعدم الاستقرار واللا توازن هي القاسم المشترك بين هذه المجتمعات، من هنا كان هاجس هؤلاء العلماء العودة بهذه المجتمعات إلى حالة التوازن والاستقرار على

الرغم من المخاضات التغييرية التي كانت تلوح في الأفق ، وهؤلاء العلماء هم "فرييدو باريتو" (1848-1923) و"ماكس فيبر" (1920- M.Weber (1864) و"أميل دوركهايم" (1858-1917).Durkheim

جذور الإشكالية وحلولها:

إن الجذر الأساسي للمشكلات التي كانت تعاني منها المجتمعات الأوروبية كما يراه الرواد الثلاثة أعلاه هو ذلك التقاطع أو التصادم العنيف بين الدين والعلم^(٧). حيث تعرض الدين إلى هزات عنيفة بسبب الإنجازات العلمية التي أدت إلى الحيرة والقلق والارتباك الذي كانت محصلته فقدان "التماسك الاجتماعي" Social Cohesion الذي لا يمكن إيجاده إلا بالوقوف بوجه الضغوط الناتجة عن قوة العلم. وهكذا فإن كلاً من هؤلاء العلماء أدلى بدلوه في سبيل إعادة القوة والروح إلى المعتقدات الدينية بوصفها ضرورة للتماسك الاجتماعي المفقود^(٨).

لقد قدم "باريتو" حلاً يجمع بين المنطقية والتجريبية فهو يرى أن علم الاجتماع يجب أن يكون تجريبياً معتمداً على "الملاحظة" Observation و"التجربة" Experiment مستبعداً كل القضايا الأخرى لاسيما الأخلاقية والميتافيزيقية والدينية التي ليس لها علمية - حسب اعتقاده^(٩). ولهذا السبب سعى "باريتو" لأن يناقش بعض النظريات والأفكار والمفاهيم ، التي كانت كثيرة الانتشار مثل التقدم والمساواة والديموقراطية والحرية، وغيرها من النظريات التي كانت مرتبطة بالكثير من المفكرين والفلاسفة وعلماء الاجتماع أيضاً ، واعتبرها نظريات وأفكار غير علمية ، ولهذا كانت هذه النظريات موضع انتقاد شديد من جانبه لفقدائها الخصائص المنهجية التي يجب أن تقوم عليها بصورة عامة^(١٠). من هنا عرض "باريتو" في كتابه "العقل والمجتمع" The Mind and Society كثيراً من الملاحظات الناقدية حول النزعة العلمية التي تزعمها كل من "كونت" و"سبنسر" كما نجد في منهجه أيضاً انتقادات لاذعة للحركة العلمانية وما تطرحه من قيم ومفاهيم تتعلق بالتقدم والديمقراطية والإنسانية ، ويرى أن استخدام "المنهج التجريبي المنطقي" Logico-Experimental Method هو الذي يساعدنا على تجنب الوقوع في الأخطاء التي وقع فيها الكثير من العلماء والمفكرين ليس في حقل علم الاجتماع فحسب بل في الحقول الأخرى كعلم النفس وعلم الاقتصاد والسياسة وغيرها^(١١).

إن "باريتو" يقدم المجتمع على أنه نظام للقوى في حالة توازن بين العوامل الطبيعية كالترربة والمناخ والنبات والحيوان ... إلخ ، والعوامل الخارجية بما فيها آثار المجتمعات الأخرى في حياة المجتمع ، وبين العوامل الداخلية التي تتضمن "العنصر" Race والعواطف والأيدولوجية^(١٢) ويعوّل كثيراً على قدرة العوامل الداخلية في مواجهة ضغوط العوامل

الطبيعية والخارجية. وعلى هذا فإن "باريتو" يدعو إلى دين علمي وأخلاقيات علمية، ويعتقد أن المجتمع يبقى في حالة توازن وتماسك طالما هناك العوامل الداخلية بما فيها العواطف أو "الرواسب" Residues تفعل فعلها إزاء العوامل الضاغطة بعد إدراكه أن العلم وحده لا يجعل الناس يتصرفون "قالمرء لا يستطيع أن يفسر عن طريق المنهج المنطقي التجريبي الوضع القائم للنظام الاجتماعي دون أن يدمر أساسه ، فالمجتمع يقوم عن طريق المشاعر التي لا حقيقة فيها إلا أنها ذات تأثير عظيم ، وأن عالم الاجتماع إذا كشف للناس ما يجري خلف أنظارهم فإنه بذلك يخاطر بتدمير أو هام لا يمكن الاستغناء عنها"^(١٣). وخلص المجتمع حسب رأيه يكمن في الاعتماد على العلم والعواطف .

ويرى "فيبر" أن حل إشكالية "علم - دين" تكمن في توجه المجتمع الأوروبي نحو "البيروقراطية" Bureaucracy ذلك النظام العلمي العقلاني الذي يعتمد على مبدأ الشمولية والقانونية والأخلاقية والإلزامية والتنظيمية التي تتنافى مع الفردية والقبلية والعشائرية، والمنسجم كل الانسجام مع طبيعة المجتمع الصناعي وروح العصر الحديث الذي يتميز بسمات التحديث والتنمية والتخصص في العمل^(١٤). وهذا ما حدا بـ"فيبر" إلى القول بوجود اتفاق كبير بين غايات كل من السلوك الديني والسلوك العلماني، فنشأة التوجيه الأخلاقي البروتستانتي كانت شرطاً ضرورياً لظهور الرأسمالية الحديثة،^(١٥) كذلك فإن الالتزام بالروح الرأسمالية - التي أفرزت نظاماً بيروقراطياً - سوف يؤدي بالضرورة إلى التزام أخلاقي ديني،^(١٦) ولعل ذلك هو الذي دفعه إلى وضع كتابه الموسوم "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" The Protestant Ethics and The Spirit of Capitalism الذي أراد به التأكيد على دور العامل الديني أو الروحي في التخلف أو التقدم الاقتصادي الذي يشهده المجتمع^(١٧) وربما كان ذلك تفصيلاً صريحاً للنظرية الماركسية ومسلماتها التي تشير إلى فهم التطور الرأسمالي في ضوء العوامل الاقتصادية وحدها لأن في ذلك تقليلاً لدور الأفعال الاجتماعية في صنع التاريخ والمجتمع،^(١٨) فالدين بالنسبة لـ"فيبر" هو المحرك الأساس للنشطة الاقتصادية والإنتاجية التي يمارسها المجتمع^(١٩).

وبهذا فإنه يرى أن التنظيم البيروقراطي والعقلاني إنما هو قدر المجتمعات الحديثة على الرغم من احترامه العميق للعقيدة الدينية التي ظهرت في العصور الماضية ، لكنه أبدى خشيته من أن مثل هذه المجتمعات "البيروقراطية" يمكن أن تؤدي إلى تدمير ما يجعل للحياة قيمة مثل حرية الاختيار والشعور بالمسؤولية ، وبذلك يمكن القول إن "فيبر" لم يسخر من العواطف التقليدية أو الأديان العلمية كما فعل "باريتو" ولم يتصور أخلاقيات علمية كما فعل "دوركهايم" الذي سيأتي ذكره أدناه .

أمّا بالنسبة لـ"دوركهيم" فقد كان أستاذاً للفلسفة ولم يكن يعجزه تشخيص المشكلة ووضع الحلول لها سيّما وأنه التلميذ المخلص لـ"أوجست كونت" الذي أكد أن التوافق هو أساس التماسك الاجتماعي، وأنه لا بد من إيجاد اعتقاد يجمع بين العلمية والروحية في محاولة لتجاوز النمط التقليدي الذي ساد أوروبا في فترات سابقة^(٢٩). من هنا أوضح "دوركهيم" أن جذر الأزمة أو المشكلة في المجتمع الغربي أخلاقي وليس اقتصادياً يعود إلى انهيار قوة المعتقدات الدينية القائمة على مرتكزات تقليدية، أي اهتزاز الأخلاق التقليدية وانهيارها وعدم إحلال نسق أخلاقي مكانها، ومن ثم لم تعد للقواعد الأخلاقية قوة ملزمة،^(٢١) فالمجتمع الغربي Anomie -حسب رأيه- تسوده حالة من ضياع المعايير أو ما يعرف بـ"الأنومي" وهذه وهذه الحالة لها انعكاساتها على مستويين هما:

- **المستوى الفردي:** يتجسد في إغفال الفرد لالتزاماته نحو المجتمع وتغليب مصلحته الخاصة على المصلحة العامة نتيجة لشعوره بعدم الأمان والاستقرار في مواجهة سلوك الآخرين، بحيث نجده يؤدي سلوكه دون إدراك واضح لمدى اتساقه وفعل الآخرين أو بتناقضه معهم .

- **المستوى الاجتماعي:** يتجسد في ضعف أداء التجمعات التقليدية في المجتمع وانهيارها، بالإضافة إلى طغيان الدولة وقهرها للفرد أو العكس تصبح خاضعة لآراء الأفراد ورغباتهم وهذا يعني افتقاد النظام السياسي ودخول المجتمع في أزمة أخلاقية قد تؤدي إلى انهيار البناء الاجتماعي برمته^(٢٢). من هنا فإن "دوركهيم" يضع بعض المحكّات التي يحاول بها إعادة توازن المجتمع وهي: ^(٢٣)

١. ضرورة تأسيس بناء أخلاقي يتصل بالحياة الدينية مع ضرورة توفير نوع من الالتزام الاجتماعي، هذا الالتزام يمكن أن يكون بالنسبة لشخصية الإنسان من الخارج، حتى يخلق الأساس الذي يتأزر في إطاره سلوك الإنسان وتوقعات الآخر بما يخلق حالة من الاستقرار والسواء في التفاعل الاجتماعي، ثم هو التزام معياري من الداخل بحيث يحكم اتساق الفرد من داخله نحو الخارج الذي به الآخر والمجتمع، ومن ثم يعمق البعد الاجتماعي في بناء شخصيته، مما ينأى به عن موقف الإنسان النفعي الذي ينجز سلوكه وفقاً لاعتبارات حسابية .

٢. خلق مجموعة من الجماعات المهنية التي تحتل المسافة بين الفرد والدولة، بحيث يقف العامل وصاحب العمل في إطار جماعة مهنية وأخلاقية واحدة، ومن ثم نعيد - بشكل عصري - الفاعلية التي كانت للجماعات التقليدية .

٣. إقرار النظام عن طريق التوزيع الملائم للبشر في الموقف الاجتماعي، أي تلاؤم الدور وإمكانيات الإنسان القائم بالدور .

وباختصار فإن "دوركهيم" يدعو إلى قيم ومقاييس ومثل جديدة تنطبق مع روح العصر، وذلك لن يتحقق دون العمل على إيجاد المعتقد الذي يجمع بين هذه القيم والمثل والأخلاق وبين

التوجهات العلمية، فالمطلوب هنا إقامة بناء أخلاقي مواكب للتحويلات التي يمر بها المجتمع قائم على مرتكزات علمية، وهذا هو هدف علم الاجتماع .

رؤية تحليلية :

بالرغم من وحدة الموضوع الذي جمع بين العلماء الثلاثة والمتمثل بإشكالية العلم والدين إلا أنّ دراسة الموقف النظري لكل منهم تكشف عن تعرضهم لمؤثرات مختلفة فرضت على تفكير كل واحد منهم أن يتميز بطابع خاص.

إنّ "باريتو" المتخصص بالهندسة المدنية والذي أخرج نظرية رياضية في الاقتصاد يعتقد بأنّ علم الاقتصاد علم حقيقي وأصيل، ومع ذلك كان يشك بقابليته وقدرته على تفسير السلوك الاقتصادي، لهذا السبب اضطر "باريتو" للاستعانة بعلم الاجتماع لمعرفة حقيقة السلوك الاقتصادي والعوامل المؤثرة فيه،^(٢٤). وعند قيامه بتحليل الدوافع الإنسانية للفعل أشار إلى أنّ الأنشطة الاقتصادية غالباً ما تتأثر بالمصالح المشتركة للجماعة، هذه المصالح تقيد سلوك الفرد وتجعله بعيداً عن الممارسات الأنانية وقريباً من مصالح الجماعة وأهدافها المشتركة .

إنّ ما حكم التوجه الفكري لـ"باريتو" هو المعايير المنطقية المميزة للسلوك العلمي والاقتصادي ولا منطقية السلوك الإنساني عامة، وكان ذلك هو الغرض الذي سعى إلى التذليل عليه والبرهنة على صحته وكرس لذلك علم الاجتماع عنده،^(٢٥) أي كان يبحث عن تحديد عقلانية اللاعقلانية السائدة وهو بذلك لم يقصد أن يتخلى عن النظرية الاقتصادية، ولكنه حاول استبدال تجريداتها بالمفاهيم السوسولوجية والسيكولوجية التي قد تساعده على فهم السلوك البشري،^(٢٦) ويتعين علينا أيضاً أن نأخذ في اعتبارنا أن "باريتو" كان في بداية حياته ليبرالياً جمهورياً ديمقراطياً غيوراً، مؤكداً على النزعة السلمية، غير أننا نجد في مرحلة تاريخية تالية عدل عن أفكاره الليبرالية، وشن هجوماً على النظريات الليبرالية الديمقراطية عامة والاشتراكية خاصة،^(٢٧) بعد أن وجد في أفكارها مخاطر كبيرة على الأقليات الممتازة "النخب أو الصفوات".

أمّا "فيبر" فقد كان مؤرخاً وقيماً واقتصادياً وسياسياً ذو عقلية موسوعية فريدة قلما وجد مثلها في العصر الحديث، تميز بنشاطه العلمي اللامحدود، الذي لم يقف عند حد المجال الأكاديمي، بل تجاوزه إلى السياسة أيضاً، بحيث يمكن القول إن حياته تنقسم متعادلة بين العلم والسياسة، ومن التساؤلات التي كان قد طرحها: ما العلاقة بين العلم والسياسة؟ وهل يستطيع العالم أن يكون رجل سياسة؟ لقد كان يريد علماً محايداً موضوعياً لأنه لم يكن يرغب في أن يستخدم العالم مركزه أو نفوذه لفرض آرائه عند دراسته موضوعات المجتمع وظواهره، ولكن العلم المحايد يجب أن يكون نافعاً لرجل السياسة، وهناك في رأيه عنصراً لا مفر منه في المجتمعات الحديثة يشكل الخصائص الجوهرية لها، هو البيروقراطية أو العقلانية، ولكن هذا

العنصر لا يحكم النظام الاجتماعي ككل لأنه لا بد أن تأخذ في الاعتبار احتمالين أساسيين هما احترام الفرد ، واحترام حرية^(٢٨).

ولم يكن "دوركايم" مهندساً ولا فقيهاً ولا مؤرخاً وإنما كان فيلسوفاً ، وفلسفته ليست تلك التي نظر إليها بعض زملائه وأساتذته بوصفها هواية التفلسف "حول لاشيء" فهو يطالب بمعرفة فلسفية يمكن الاستفادة منها في الميادين السياسية والاجتماعية،^(٢٩) ومن أهم الدراسات التي أنجزها "دوركايم" كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" *Division of Labor in Society* الذي كان فاتحة أعماله السوسولوجية الذي عالج فيه مسألة التمايز بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الحديثة، حيث تتميز الأولى بوجود "التضامن الميكانيكي" *Mechanical Solidarity* الذي يعتمد على التماثل والتجانس بين أعضاء المجتمع ، بينما يستمد "التضامن العضوي" *Organic Solidarity* أسسه من التباين والاختلاف في المجتمعات الحديثة،^(٣٠) وكتابه الثاني عن "الانتحار" *Suicide* الذي تناول فيه الأخطار التي تهدد المجتمعات الحديثة والصناعية، وكشف "دوركايم" بطريقة واضحة إن ظاهرة الانتحار تعزى كليةً لأسباب اجتماعية،^(٣١) ويناقش مؤلفه الثالث "الأشكال الأولية للحياة الدينية" *Elementary Forms of Religions Life* الذي قدم فيه نتائج دراساته للقبائل الأسترالية ، بوصفها تمثل مرحلة بعيدة أو قديمة من مراحل التطور عن الدين والأخلاق والمعرفة،^(٣٢) والذي انتهى إلى صياغة نظرية عن أصل الدين، ويقرر في هذا الصدد "إن حياة الجماعة هي المصدر المنشئ، أو السبب الكافي للدين" كما أن الأفكار والممارسات الدينية إنما ترمز إلى الجماعة الاجتماعية وهي بذلك ترمز إلى الواقع الأخلاقي للمجتمع،^(٣٣) و"دوركايم" إذ يقوم بدراسة الطبيعة الخاصة للتنظيم الاجتماعي في هذه المجتمعات البسيطة إنما يقصد إصلاح المجتمعات الحديثة في ضوء التجربة البدائية البسيطة.

وبعد أن انتهينا من المقارنة المختصرة بين العلماء الثلاث يمكن أن نقف على أوجه التشابه والاختلاف بينهم وكما يأتي :-

١- "إن باريو وفيرر ودوركايم ينتمون إلى جيل واحد تقريباً عاش ظروفًا تاريخية متشابهة هي ظروف نمو الحضارة الغربية وما صاحب هذا النمو من مشكلات انعكست آثارها واضحة على نظم المجتمع ومكونات بنائه، ورغم الاختلافات الفكرية بين كل منهم، فإنهم جميعاً كانوا يهدفون إلى تطوير علم الاجتماع بوصفه الأداة الرئيسية لتشخيص مشكلات هذه الحقبة التاريخية، وإيجاد الحلول لها، وهم يشتركون جميعاً في أن النسق الفكري الذي طرحه علم الاجتماع كان بمثابة رد محافظ على التيار الذي تزعمته الماركسية لتتوثر مفاهيم علم الاجتماع من أجل تغيير المجتمع وتحديد مسيرته في اتجاه معين بالذات"،^(٣٤) لذا حاولوا إعادة الأفكار السابقة التي سبقهم إليها "كونت" المؤمنة بالتطبيق السلمي للعلم والمعرفة لاكتمال

المجتمع، دون تعرضه لإعادة البناء، وبذلك قدم رؤية تؤكد أهمية النظام والانتظام في الحياة الاجتماعية وتبرز الطابع التضامني الذي يربط بين مختلف الطبقات الاجتماعية،^(٣٥) من هنا فإن "كونت" اتخذ موقف الرفض للأيديولوجيات التي سادت في زمانه والمتمثلة في الأيديولوجية الليبرالية، والأيديولوجية الاشتراكية، والأيديولوجية المادية^(٣٦).

٢- يمكن إدراك آراء "باريتو وفبير" خلال السياق الاجتماعي والسياسي الذي أحاط بها من جهة ، واهتمامها بنقد وتحليل الماركسية من جهة أخرى.

لقد كان "باريتو" يهدف من كتاباته إلى نقد الماركسية وتفنيد قضاياها ، فهو رجل اقتصاد ينتمي إلى مدرسة "لوزان" Lausanne وإلى آراء "ولراس" Leon Walras يسعى إلى صياغة نظرية للتوازن الاقتصادي على أساس الاختيار الفردي ، ويرى التحليلات الماركسية للنسق الاقتصادي وللعلاقة بين الطبقات ثم الاتجاهات البنائية للنسق، ولمصادر القوة السياسية، وعقلانية الإنسان ورشده، وكثير من المفاهيم الاقتصادية كالعقل والفائض القيمة والاستغلال خالية من الأساس العلمي طالما أن التحليل العقلاني للظروف لا يدفع البشر أو يوجههم بأي معنى في أي اتجاه،^(٣٧) كما طور "باريتو" أيضاً نظرية عن توزيع الدخل يبرهن فيها على أن توزيع الدخل في كافة المجتمعات إنما يفسر على أساس قانون رياضي معين، ومن ثم أصبحت فرص تغيير هذا التوزيع عن طريق الثورة على النظام محددة تماماً، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يقرر أن العقلانية الاقتصادية ضرورية ولهذا السبب فإن خصائص الاقتصاد الرأسمالي سوف تظل باقية حتى مع اكتمال حدوث ثورة اشتراكية وهكذا يسعى "باريتو" إلى صياغة مبررات الملكية الخاصة والمنافسة وهما في نظره أهم مقومات التقدم الاقتصادي^(٣٨).

أمّا نقد "فبير" للماركسية فإنه يشبه نقد "باريتو" بصورة أو بأخرى، لكنه لم يهتم كثيراً بالمصلحة الاقتصادية الذاتية في كل الأنظمة بقدر اهتمامه بالأداء التنظيمي والبيروقراطي.

وقال "باريتو" إن المنافسة والملكية الخاصة بصفة عامة هي النظم الاقتصادية الأكثر صلاحية لزيادة الثروة، أما نمو البيروقراطية وانتشار اشتراكية الدولة وطمس أو إنهاء الدخل الشخصي عن طريق الدولة من أجل البيروقراطية فإن هذا جدير بأن يؤدي إلى تدمير الاقتصاد بأكمله،^(٣٩) في حين "فبير" أعطى الاهتمام كله للتنظيم العقلاني للبيروقراطية بوصفها أحد أنماط التنظيم التي يتزايد انتشارها في المجتمع الحديث والذي يستمد جوانب قوته بالتحول نحو الاشتراكية،^(٤٠) من هنا حاول "فبير" في تحليله للبيروقراطية أن يجد نظاماً يمكن أن يعيد التماسك للمجتمعات الأوروبية .

٣- يعتقد "دوركهايم" أن مشكلة المجتمع الصناعي في جوهرها مشكلة أخلاقية كامنة في بناء المجتمع ذاته، ومثل هذه الطريقة تكشف عن فكرة رئيسية ميزت أعمال "دوركهايم" هو رفضه

الصراع سواء كان ذلك في مجتمع التضامن الآلي أو مجتمع التضامن العضوي، وفي إطار ذلك يؤكد على أن الأنا والآخر في ذات المجتمع يفرض على الأنا تحديد حقوقه في إطار التسليم بحقوق الآخرين، بحيث يؤدي هذا التحديد المتبادل إلى خلق روح التوافق والاتفاق،^(٤١) وبذلك ينظر "دوركهايم" للمجتمع - مثلما فعل كونت - بوصفه وحدة طبيعية تقوم على "الاتفاق العام أو الاجتماع" Consensus، لا محل إذن للصراع من أية زاوية، فلا يمكن أن يكون دافعاً للحركة التاريخية، ولا تعبيراً عن الطبيعة البشرية، إنه فقط عرض من أعراض الأزمات المعاصرة، والمجتمع الحديث في رأي "دوركهايم" يتميز بدرجة عالية من التنوع السكاني، وغياب سلطة التقاليد المرتبطة بالجماعات القرابية، وانهايار الجماعات الأولية، ومن ثم فهو مهدد بحالة من الفوضى أو "الأنومي" Anomie التي تنذر بانهاياره دون أن يوجد المجتمع نظاماً اجتماعياً عاماً يحافظ على وحدته ويقف بفاعلية في مواجهة نمو الأنومي^(٤٢).

والسؤال الذي يطرح نفسه، ما الذي قدمه "باريتو"، فيير، دوركهايم" لنمو علم الاجتماع؟ كتب الثلاثة من خلال المضمون التاريخي عن الدين والعلم، أي على أساس تفسير النظرية السوسيولوجية للدين والتفسير الديني للحركات الاجتماعية.

وأهم إسهام قدمه الثلاثة لتطوير علم الاجتماع يتمثل في تصورهم لهذا العلم بوصفه يهتم بدراسة "الفعل الاجتماعي" Social Action وظهر ذلك بوضوح في أعمال "فيير، باريتو" وبشكل متضمن في أعمال "دوركهايم" فالإنسان باعتباره كائناً اجتماعياً ودينياً هو مصدر القيم والأنساق الاجتماعية، أي بناء الفعل الاجتماعي، وقد كان "فيير" أول من وضع تعريفاً لعلم الاجتماع بوصفه الدراسة الشاملة للفعل الإنساني، ومع ذلك يتصرف الإنسان في ضوء ما يحدده من أهداف، وما يختاره من وسائل لتحقيق تلك الأهداف وفقاً للظروف المحيطة به والقيم التي يحملها^(٤٣). يمكن القول إن العلماء الثلاثة كانوا متفقين في رفض التفسيرات الخارجية والمادية والاقتصادية للسلوك الإنساني، ولعل ذلك هو الذي دفع "بارسونز" T.Parsons لوضع مؤلفه الهام "بناء الفعل الاجتماعي" The Structure of Social Action لتحليل أعمالهم وإثبات العلاقة بين الأنساق الثلاثة للتفسيرات التصورية للسلوك الإنساني^(٤٤) وحاول "بارسونز" من خلال اختلاف لغة كل منهم أن يثبت أنهم جميعاً حاولوا أن يبينوا بطرق متعددة ما يمكن أن نطلق عليه البناء الرسمي للتفسير السوسيولوجي للسلوك أو البناء له، لأن أصل هذا التشابه الصوري ينبع من مشكلة التعارض بين العلم والدين، التي فرضت نفسها عليهم جميعاً^(٤٥).

وأخيراً، يمكن القول إن ما هو متشابه بين العلماء الثلاثة يتجسد في العناصر المشتركة للموقف الأوروبي الذي من خلاله لاحظوا وكتبوا، في حين تجسد ما هو مختلف بينهم في المضمون الفكري والقومي الذي اختاره كل منهم، ويظهر الاختلاف كذلك في مكونات

شخصياتهم فالأول كاثوليكي، والثاني بروتستانتي، والثالث يهودي، ثم الأول متشائم، والثاني ملاحظ، والثالث متفائل^(٤٦).

الهوامش

- ١- خضر زكريا ، نظريات سوسيولوجية ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ١٩٩٨، ص٨٢.
- ٢- سمير أيوب، تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٨٤.
- ٣- نفس المرجع السابق، ص١٨٤-١٨٥.
- ٤- متعب مناف السامرائي ، مذكرة غير منشورة في النظريات الاجتماعية أقيت على طلبة الدكتوراه، جامعة بغداد ، كلية الآداب ، قسم الاجتماع ، ١٩٩٦ .
- ٥- نفس المرجع السابق.
- ٦- نفس المرجع السابق.
- ٧- محمد عاطف غيث، دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥، ص١٤٩.
- ٨- نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع : طبيعتها وتطورها ، ترجمة : محمود عودة وآخرون، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٣٩، ١٩٨٣.
- ٩- صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع في عالم متغير، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ٢٩٨.
- ١٠- عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية، ج١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥، ص٣٤٥.
- ١١- إحسان محمد الحسن، رواد الفكر الاجتماعي: دراسة تحليلية في تاريخ الفكر الاجتماعي، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩١، ص٣٢٥.

- ١٢- قيس النوري وعبد المنعم الحسني ، النظريات الاجتماعية ، مطابع جامعة الموصل ، الموصل ، ١٩٨٣، ص١٢٣ .
- ١٣- محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٤٧-١٤٨ .
- ١٤- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥، ص٢٨٤ .
- ١٥- هاري إلمر بارنز ، مقدمة في تاريخ علم الاجتماع ، ترجمة : صبحي محمد فنوص، الهيئة القومية للبحث العلمي ، طرابلس - ليبيا ، ٢٠٠٣، ص
- ١٦- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة، مرجع سابق، ص٢٧٨-٢٧٩ .
- ١٧- نفس المرجع السابق، ص٢٧٧ .
- ١٨- السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص٨٠ .
- ١٩- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة، مرجع سابق، ص٢٧٧-٢٧٨ .
- ٢٠- مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه : الكتاب الثالث ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ، ١٩٧٨، ص٩ .
- ٢١- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، ط٢، دار المعارف، القاهرة ، ١٩٨٣، ص٥٠٠ .
- ٢٢- نفس المرجع السابق، ص٥٠١ .
- ٢٣- نفس المرجع السابق، ص٥٠١-٥٠٢ .
- ٢٤- محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٤٩ .
- ٢٥- إحسان محمد الحسن ، رواد الفكر الاجتماعي مرجع سابق، ص٣٢٥-٣٢٨ .
- ٢٦- محمد علي محمد، المفكرون الاجتماعيون: قراءة معاصرة لأعمال خمسة من أعلام علم الاجتماع الغربي، دار النهضة العربية، ١٩٨٢، ص١٥٤ .
- ٢٧- علي ليلة، مرجع سابق، ص٦٩٤ .
- ٢٨- نفس المرجع السابق، ص٦٦٧ .
- ٢٩- محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٥٢-١٥٣ .
- ٣٠- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص١٠١-١٠٢ .
- ٣١- السيد علي شتا ، نظرية علم الاجتماع ، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية ، ٢٠٠٤، ص٢٧٧ .
- ٣٢- نفس المرجع السابق، ص٢٧٩ .

- ٣٣- أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي : دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٠، ص٦٠١ .
- ٣٤- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص١٠٣ .
- ٣٥- نفس المرجع السابق، ص١٢٨ .
- ٣٦- السيد الحسيني، مرجع سابق، ص١٦ .
- ٣٧- سمير أيوب، تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع، معهد الإنماء العربي ، بيروت، ١٩٨٣، ص٨٤ .
- ٣٨- علي ليلة، مرجع سابق، ص٦٨٤ .
- ٣٩- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص٢٥٠-٢٥١ .
- ٤٠- محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٦٢ .
- ٤١- طلعت إبراهيم لطفي، علم اجتماع التنظيم، دار غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٩٣، ص٢٣-٢٤ .
- ٤٢- علي ليلة، مرجع سابق، ص٥٠٤-٥٠٥ .
- ٤٣- محمد علي محمد، مرجع سابق، ص٢٤٩ .
- ٤٤- محمد عوض عبد السلام ، الفعل الاجتماعي عند تالكوت بارسونز : دراسة تحليلية نقدية، دار المطبوعات الجديدة ، ل.اب ، ١٩٨٦، ص١٨-١٩ .
- ٤٥- محمد عاطف غيث، مرجع سابق، ص١٤٩ .
- ٤٦- نفس المرجع السابق، ص١٥٣ .

الراجع

- ١- أحمد الخشاب، التفكير الاجتماعي: دراسة تكاملية للنظرية الاجتماعية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠ .
- ٢- إحسان محمد الحسن، رواد الفكر الاجتماعي: دراسة تحليلية في تاريخ الفكر الاجتماعي، مطابع دار الحكمة للطباعة والنشر، بغداد، ١٩٩١ .
- ٣- إحسان محمد الحسن، النظريات الاجتماعية المتقدمة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٥ .
- ٤- خضر زكريا، نظريات سوسيولوجية ، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق، ١٩٩٨ .
- ٥- سمير أيوب، تأثيرات الأيديولوجيا في علم الاجتماع، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٣ .

- ٦- سمير نعيم أحمد، النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩.
- ٧- السيد الحسيني، نحو نظرية اجتماعية نقدية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ٨- السيد علي شتا، نظرية علم الاجتماع، المكتبة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ٢٠٠٤.
- ٩- صلاح مصطفى الفوال، علم الاجتماع في عالم متغير، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦.
- ١٠- طلعت إبراهيم لطفى، علم اجتماع التنظيم، دار غريب للطباعة، القاهرة، ١٩٩٣.
- ١١- عبد الله محمد عبد الرحمن، النظرية في علم الاجتماع: النظرية الكلاسيكية، ج١، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٥.
- ١٢- علي ليلة، النظرية الاجتماعية المعاصرة: دراسة لعلاقة الإنسان بالمجتمع، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.
- ١٣- قيس النوري وعبد المنعم الحسني، النظريات الاجتماعية، مطابع جامعة الموصل، الموصل، ١٩٨٣.
- ١٤- متعب مناف السامرائي، مذكرة غير منشورة في النظريات الاجتماعية أقيمت على طلبه الدكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، قسم الاجتماع، ١٩٩٦.
- ١٥- محمد عاطف غيث، دراسات في تاريخ التفكير واتجاهات النظرية في علم الاجتماع، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٥.
- ١٦- محمد علي محمد، المفكرون الاجتماعيون: قراءة معاصرة لأعمال خمسة من أعلام علم الاجتماع الغربي، دار النهضة العربية، ١٩٨٢. بيروت، ١٩٨٢.
- ١٧- محمد عوض عبد السلام، الفعل الاجتماعي عند تالكوت بارسونز: دراسة تحليلية نقدية، دار المطبوعات الجديدة، ل.ب، ١٩٨٦.
- ١٨- مصطفى الخشاب، علم الاجتماع ومدارسه: الكتاب الثالث، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.
- ١٩- نيقولا تيماشيف، نظرية علم الاجتماع: طبيعتها وتطورها، ترجمة: محمود عودة وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣.
- ٢٠- هاري إلمر بارنز، مقدمة في تاريخ علم الاجتماع، ترجمة: صبحي محمد فنوص، الهيئة القومية للبحث العلمي، طرابلس - ليبيا، ٢٠٠٣.

